



مكتبة الطفل ... مكتبة الطفل ... مكتبة الطفل ...مكتبة الطفل

٤٧ السلسلة القصصية

الحمارُ الذّكي



تأليف : محمد شمسي

الاخراج الفني : شريف الراس

خطّةٌ للهرَب

في قريةٍ صغيرةٍ بينَ الحقولِ والأدغالِ عاشَ رجلٌ عجوزٌ وحيداً ، ولم يكنْ معه سوى حمارينِ أسودينِ تركهما يعيشانِ في غرفةٍ مهدّمةٍ من البيت .

ولم يكنْ هذانِ الحمارانِ سعيدينِ معَ الرجلِ العجوزِ ، لأنّه كانَ طوالَ النّهارِ يحمّلُ فوقَهما الأثقالَ ويجولُ بهما في طرقاتِ القرية . وما إن يحلُّ المساءُ حتى يمضيَ بهما إلى البيتِ فيقضيا ليلهما بالأنينِ والتوّجعِ دونَ أن يأخذا نصيباً من الطّعامِ يكفي لسدِّ الرّمقِ والجوع .





وكانت أحلامُهما تدورُ حولَ المراعي والحقولِ الخضراءِ وحزَمِ الحشائشِ الطَّيبةِ التي لا تَبعدُ كثيراً عن البيتِ، فالقريةُ - كما قلتُ - وَسَطَ حقولٍ وأدغالٍ لا أولَ لها ولا آخِر. وما إن يخرجُ الحمارُ ويتمشّىْ قليلاً حتى يجدَ نفسَهُ وَسَطَ مراعٍ متراميةِ الأطراف. ولكنّ الرجلَ العجوزَ لم يكنْ يتركُ الحمارينِ يخرُجانِ دونَ عمل، كان سُرعانَ ما يعودُ بهما الى الاصطبل ويُغلقُ خلفهما البابَ حالما ينتهيانِ من أيِّ عمل يقومان به.

ويبدو أن الحالة قد وصلت إلى أقصاها، ولم يعُد باستطاعةِ الحمارين الرضوخُ لمثلِ هذه الحياة القاسيةِ المريرة. ففكرًا جَيداً حتى توصّلا - بعد زمنٍ من التفكير - إلى رأي موحّد.

قال الحمارُ الأولُ : ((لا نُريدُ أن نتسرّعَ في عملٍ قد تكونُ نتائجُه سيئةً ، وإذا ما قمنا بعملٍ متهورٍ فاعلم أنَّ أحداً سوانا لن يتلقّى نتيجةَ هذا التّهور ، بل سيقعُ ضَرَرُه كلُّه علينا ، لهذا لا بدَّ من التفكيرِ والتفكيرِ فقط لإيجادِ حلٍّ ملائمٍ لحالتنا .

إنّ إقناعَ صاحبنا العجوز بتغييرِ معاملتهِ لنا شيءٌ مستحيل ، لهذا السببِ لا بدَّ أن نضعَ صاحبَنا العجوزَ جانباً ونفكّرَ بطريقةٍ أخرى للخلاص .

قد تقول .. ((الهرب)) ، نعم .. ((الهرب)) ..

تَصَوَّرْ أنّنا كسرنا القفلَ في منتصفِ الليلِ وهربنا ، إلى أينَ ترى تستطيعُ أرجلُنا المُتعَبةُ الوصولَ بنا؟ ثم إنّ صاحبَنا سُرعان ما يكتشفُ أمرَنا ويخرجُ للقبضِ علينا معَ مجموعةٍ من صِبيانِ القريةِ المشاكسينَ ... سيُعطي كلَّ واحدٍ منهم قطعةً صغيرةً مِنَ النقودِ تجعلُهم ينطلقونَ كالذئابِ وراءَ الحُملانِ الوديعة .

إنّنا يا صديقي مثلُ الحُملانِ الوديعةِ وهؤلاء كالذّئاب .. فهل رأيتَ في حياتِكَ حَمَلاً وديعاً إستطاعَ أن يتغلّبَ على ذئبٍ أو ينجوَ من مطاردتهِ؟)) .





قالَ الحمارُ الثاني وكان أكثرَ حكمةً وأقلَّ كلاماً من صديقهِ :

((لا تتعجَّل الأمرَ يا صاحبي .. أنا لم أقترحْ عليكَ حلاً حتى ينفلتَ لسانُكَ مثلَ صُنبورِ الماءِ ، وما أشرتُ عليكَ بالهربِ حتّى رحتَ تُعدِّدُ عليَّ عيوبَهُ ونواقِصَه .

لقد قلتَ ((لنفكِّرْ بهدوء))، وها أنتَ ذا أبعدُ ما تكونُ عن الهدوء ، أنت تقترحُ فكرةً وأنا أقترحُ فكرةً حتى نتوصلَ إلى حلٍّ يتّفقُ عليه كلانا ، ما تقولُ في ذلك ؟))

أجابَ الحِمارُ الآخر :

- ((هذا هو الصحيحُ)) .

وهكذا حصل .. بقيَ الحمارانِ ليلةً كاملةً يُفكِّرانِ .. كلُّ واحدٍ يعرِضُ فكرَتهُ فيناقشُها الحمارُ الآخرُ ، وحينَ أصبحَ الصّباحُ لم يتفّقا على فكرةٍ واحدةٍ من الأفكارِ التي عرضتْ لهما طَوالَ اللّيل .

وفي مُنتصفِ الليلةِ الثانيةِ لِمعتْ في رأسِ أحدِ الحمارينِ فكرةٌ رائعةٌ جعلتهُ ينتصبُ واقفاً على أقدامِهِ الأربعة قائلاً :

ـ ((ليهربْ واحدٌ منّا أولاً)) .

فأجابَ الثاني ممتعِضاً : ولماذا واحدٌ فقط؟

ـ لكي يتأكّدَ من ظروفِ الحياةِ خارجَ القرية .. فمن يدري؟ ربما لا تُعجبهُ الحياةُ في البراري فيعودُ هذا ليخبرَ صاحبَه بالأمرِ فيبحثا عن طريقةٍ أخرىٰ للنجاة .

ـ حسناً .. أَتفقُ معكَ ، ليهربْ أحدُنا فقط ، ولكنْ ليهربْ متخفياً .

ماذا؟ ـ قالَ الحمارُ الآخر ـ إنه حمارٌ .. كيف يستطيعُ أن يتخفّى؟ هل تُريدُهُ أن يضعَ على رأسِهِ قبّعةً تُغطي نصفَ وَجهِه؟

ـ لم أقصُدْ هذا ـ أجابَ الحمارُ الثاني ـ ولكنْ لكي تعيشَ في البراري والوُديانِ فلا بدّ أن تكونَ معَ جماعةٍأو قطيعٍ ، فهل تَستطيعُ العيشَ بمفردِك؟ بالطبعِ ... لا .

ولو بحثتَ في كلِّ حقولِ الدنيا وبراريها لما وجدت قطيعاً من الحمير يعيش حُراً طليقاً .. أفهمتَ ما أعني؟

الحميرُ يا عزيزي تعيشُ في الاصطبلات ونحنُ نُريد أن نغادرَ الاصطبلَ إلى المراعي الخضراءِ والحقولِ . إذن استمع إلى ما أقولُ وافهم .

صمتَ الحمارُ بعدَ تعنيفِهِ ولم يَعُدْ يتحدّثُ بشيءٍ ، وظلّ مُنَكّسَ الرأسِ ينتظرُ من صديقِهِ أن يطرحَ عليه فكرةَ ((التخفي)) الجديدة .

قال : غداً نجلبُ معنا مِقداراً من حجرِ الكلس مِن طُرقاتِ القريةِ ، وحينَ يكونُ الحجرُ جاهزاً سيكونُ أحدُنا جاهزاً للهربِ أيضاً ، لأني سأهّيءُ خُطّتي حالما يحضرُ حجَرُ الكلس .

إطمأنَّ الحمارُ الآخرُ إلى فكرةِ صديقهِ دوَن أن يعرفَ تفاصيلَ جديدةً عنها ، ولكنّه متأكدٌ من أنّها ستكونُ فكرةً رائعةً طالما أنّ صديقَهُ هذا حمارٌ مُسنّ ومجرّبٌ في الحياةِ أكثرَ منه .



عـملـيّـة الـتّـخفّي

وفي صباحِ اليومِ التالي ساقَ العـجوزُ الحمارينِ وسـارَ خلفَهـما في طُرقاتِ القرية وفي السوقِ بدأتْ مَشاقُّ نهارِهما الجديدِ ، فقـد حملا عدَّةَ أوزانٍ من البطيخِ من الحقـلِ إلى الســوقِ ذهاباً وإياباً ، وقبل أن يستريحا قليلاً جاءَ صَـبيّانِ لا يعـرفانِهما وقاداهما - بعـد أن تحـدّثا معَ صاحبِهما العجوزِ - وسارا بهما خارجَ القريةِ ، وهناك جعلاهما يتسـابقانِ



بالرَّغم منهما .. كلُّ صبي امتطى واحداً وراحَ ينهالُ عليه ضرباً بالعصا . فلم يجدا بُداً من السِّباق ، وكلما أبطأ أحدُهما قليلاً تلقى ضرباتٍ جديدةً ، موجعةً ، يُضطرُ بعدَها للركضِ تخلّصاً من ضرباتٍ أخرى .

وما إن اكتفى الصبيانُ بهذا القدرِ من اللّهوِ حتّى عادا مسرعين إلى الحقلِ وحمّلا الحمارين كميةً كبيرةً من البصلِ وسارا بهما الى السُّوق .

بعد تلكَ الجولةِ استراحا قليلاً فتنبّها إلى مهمتِهما التي اتّفقا عليها في الليل ، فأسرعا والتقطا عِدّةَ أحجارٍ صغيرةٍ من حجرِ الكلسِ وأخفياها في سرجيهما العتيقين .



حينَ جاءَ الليلُ واستراحا قليلاً في غرفتِهما المظلمةِ ، الكئيبةِ ، قاما وأخرجا حجرَ الكلس .

قال الحمارُ الأول : سأُجرِّبُ حظي أنا أولاً ، سأُغادرُ القريةَ في مُنتصفِ الليلِ وأبحثُ عن أصدقائي ، فإذا ما وجدتُهم سأُحاولُ الاتصالَ بك بإحدى الوسائلِ لتلحقَني .

ردّ الحمارُ الآخرُ مستفهماً : تبحثُ عن أصدقائك؟ أيُّ أصدقاءٍ هؤلاء الذين تتحدثُ عنهم؟ ألم تقلْ إنّ الحميرَ لا تعيشُ إلاّ في الاسطبلاتِ .. ولو بحثتَ في براري العالم كلها لما وجدتَ قطيعاً من الحمير هناك؟ .

ـ نعم يا عزيزي . ((أجابَ الحمارُ الثاني)) إنّ أصدقائي الذين أتحدّثُ عنهم همُ حميرُ الوحش .. فأنا لستُ حماراً عادياً إنما أنا حمارُ مخطّط .. ألا تصدق؟



وأطلقَ ضحكةً عالية كادت تُوقظُ العجوزَ من نومِه.

إذا لم تكن تُصَدِّقُ فانظرْ ماذا سأفعلُ الآن؟

ثم قامَ الى حجرِ الكلسِ ووضعَ قسماً منه في إناء الماءِ حتّى ترطّب، وراح يرسمُ خطوطاً بيضاءَ على صدرِهِ ووجهِه الطّويل، حتّى بدا ذلك الجزءُ وكأنه حقاً صدرُ حمارِ الوحشِ ووجهُه.

فغرَ الحمارُ الآخرُ فاه من الدهشةِ والتعجُّبِ. اذن لقد نجحتِ الخطّةُ.. هكذا ردّدَ مع نفسِهِ. ولكنّ صاحبَهُ لم يتركْه هكذا مشدوهاً مفتوحَ الفم، بل طلبَ منه أن يُكملَ رسمَ الخطوطِ البيضاءِ على ظهرِهِ وبطنِهِ فهو لا يستطيعُ عملَ ذلكَ بنفسه.

وبعدَ ساعةٍ اكتمل كلُّ شيءٍ.. الحمارُ الأسودُ الجالسُ في الاصطبل انقلبَ إلى حمارِ وحشٍ مخططٍ لا يحتملُ حياةَ الاصطبلات دقيقةً واحدةً وصاحبه ينظرُ إليهِ ويحسدُه على جلدِهِ الجديد.



الغـــريب المجهول

إقتربَ الحمارانِ من القُفلِ الصّغيرِ الذي أغلقَ بهِ صاحبُهما البابَ ، فعالجاهُ بقضيبٍ من الحديدِ أخفياهُ في الغرفةِ منذ الصّباحِ حتّى لانَ وانفتحَ ، وما إنْ وجدَ حمارُ الوحشِ نفسَهُ خارجَ البابِ حتّى إطمأنَ إلى نجاحِ خطتِهِ فها هوَ الليلُ في مُنتَصفِهِ ، والقريةُ نائمةٌ ، ساكنةٌ ، مُستريحةٌ ، لا شيءَ يُعكّرُ سكونَها غيرُ عُواءِ الذئابِ البعيدةِ ونُباحِ الكلابِ وهي ما زالتْ الى الآن يقِظَةٌ لم يتسللْ إلى عُيونِها النومُ بعد .

ـ ليسَ هذا بالشيءِ المُهم ...

قالَ الحمارُ ذلكَ وعانقَ صديقَهُ وطمأنَه إلى الاتصالِ بهِ في أقربِ فُرصة .

وما إن صارَ على بُعدِ خُطواتٍ عن البيتِ حتى تسللَ إليهِ الخوفُ واختفتْ منه جرأةُ حمارِ الوحشِ وصلابتُهُ وحلّت فيهِ روحُهُ القديمةُ ، اليائسةُ .. ولكنْ فاتَ الأوانُ ولم يعدْ بمقدورهِ أن يرجعَ الآن .

عَبَرَ زُقاقينِ أو ثلاثةً من أزقّةِ القريةِ ، وما إن حطَّ حافِرَهُ على



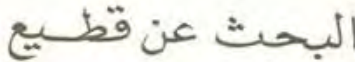
الأرضِ مُبتعداً قليلاً حتّى سمِعَ صوتاً من جانبهِ ، كادَ يُزلزلُ من تحتِ أقدامِهِ الأرضَ ، ففي وَسْطِ السكونِ والهدوءِ العميقِ أنطلقَ نباحُ كلبٍ ضارٍ لم يكنْ يتوقعُهُ : فجاء عنيفاً ، ضارياً ، كأنهُ زئيرُ الأسود .

في تلكَ اللحظةِ لم يعدْ يستطيعُ حتّى الالتفاتَ إلى جهةِ النُباح ، فقد أحسَّ أنّ الكلبَ أطلقَ نُباحَهُ وانطلقَ مُهاجِماً ، فما عليه الآنَ إلاّ الهربُ والنجاةُ بجلدِه .

ولو كانَ الأمرُ يسمحُ بالتفكيرِ والتريّثِ إذنْ لاستطاعَ بهدوءٍ أن يشرحَ للكلبِ من هو ، وما دامَ الكلبُ واحداً من كلابِ القرية فلا بدّ أنّه يعرِفهُ ويعرفُ صاحبَهُ العجوزَ أيضاً ، ولا بَد أنّه رآهما من قبلُ مراتٍ ومراتٍ يسيرانِ عِبْرَ دروبِ القريةِ وأزقتِها . ولكن كيفَ يستطيعُ أن يقِفَ ويتعارفَ في ظلّ الخوفِ والاندفاعِ ؟ ثم هل نسي أنهُ الآنَ غريبٌ عن القرية ، بل غريبٌ عن جنس الحمير أنفسِهم؟ لقد أصبحَ منذُ ما يُقارِبُ الساعةَ حماراً برّياً مُخططاً ، يتآلفُ مع الوحوش في البراري ويعيشُ معها لكنّه غيرُ قادرٍ على العيش معَ كلّ ما هو أليفٌ وداجن .

لهذا أدارَ وجهَهُ إلى جهةِ البَرِ وأطلقَ ساقيهِ للرِّيح ـ كما يُقال ـ .

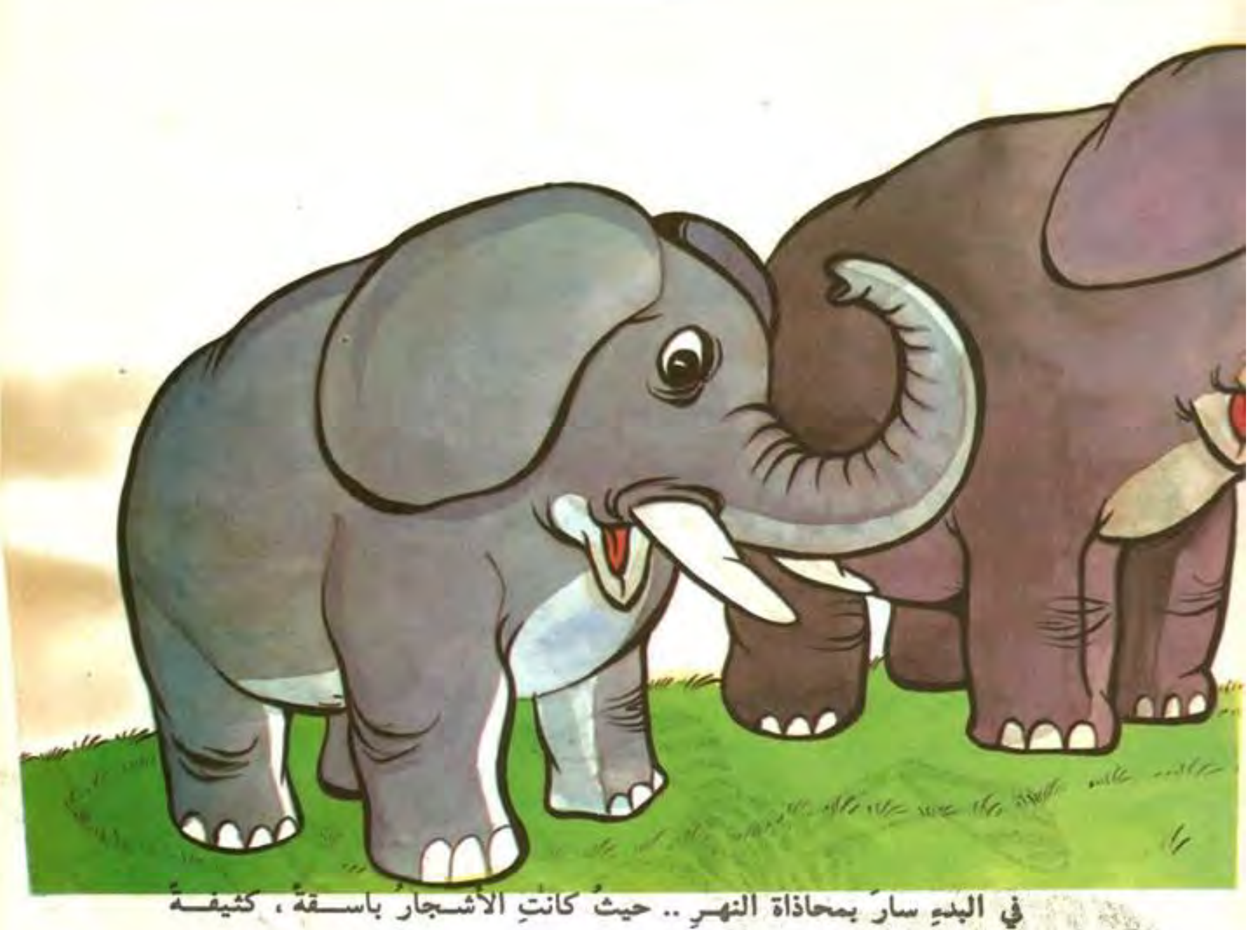






لم يتوقف إلا بعدما أحسَّ أنه أمسى بعيداً عن القريَةِ كلَّ البعدِ وليسَ باستطاعةِ أيِّ إنسانٍ أو أيِّ كلبٍ اللحاقُ بهِ ، فاطمأنَّ إلى أنَّ صاحبَهُ لن يتبَعه وأنَّ كلابَ القريةِ لن تلاحقَه بعد الآن ، هناك جلسَ على الأرضِ الصُلبةِ الخضراءِ ونامَ ، وحينما استيقظَ من نومِهِ في الصّباح كان أولُ شيءٍ يتذكرُهُ هو صديقُهُ الحمار .. إنّه الآن يتعثّرُ في أزقةِ القريةِ وفي سُوقِها ، ينقلُ البضائعَ والأحجار وكلَّ ما يخطرُ على بالِ القرويين من أثقال .. لقد تضاعفَ عملُهُ مرّتينِ ، فلا بدَّ أنَّ العجوزَ سينتقمُ منه بعدَ هُروبي فيُحمّلهُ نصيبي منَ الأثقال .. آهِ يا صديقي العزيز ، لا بدَّ من البحثِ عن وسيلةٍ للخلاص .

بعد ذلك قام الحِمارُ والتهم الحشائِش الطيّبةِ الطازجة من جواره وانطلق باحثاً عن جماعتِهِ التي يفكّرَ بالعيش معها في البراري .



في البدءِ سارَ بمحاذاة النهرِ .. حيثُ كانتِ الأشجارُ باسقةً ، كثيفةً وأوراقُها عريضةٌ ، خضراءَ ، فلم يَرَ هناك غيرَ القِرَدَةِ والأرانبِ وبعضِ الحَيوانات المفردة ، لكنّه لم يكن يُريدُ أن يعيشَ وحيداً ، مفرداً ، بل كان يُفكرُ دائماً بالعيشِ مع القطيعِ .. أيّ قطيعٍ كان ، ولكنّه ـ طبعاً ـ يُفضّلُ قطيعَ حمير الوحش ، لأنّهُ ـ كما ترى ـ يرتدي جلدَ حمار وحشٍ .

وما إن سارَ قليلاً والأفكارُ تتقاذفُ برأسهِ كما تتقاذفُ الأمواجُ فوق صدرِ سفينةٍ في عرض البحرِ ، حتى رأى من بعيدٍ قطيعاً مِنَ الأفيال :

ـ ها هو القطيعُ أخيراً .. لقد وجدتُه . هكذا ردّدَ مع نفسِهِ وهو ينظرُ إلى الأفيالِ الهائلةِ وهي ترفعُ خراطيمَها في الهواءِ وتقذفُ الماء .

((ولكنّني .. أوه ، كيف أستطيعُ العيشَ مع فيَلَةٍ ؟ وإذا عثرتُ يوماً وزلّت قدمي فسقطتُ تحتَ واحدٍ منها فماذا سيكونُ مصيري؟ لا .. لا سأبحثُ عن قطيعٍ آخر)) .

هكذا ردّدَ ثانيةً مع نفسِهِ واستمرَّ في سيرِهِ مُبتعداً عن طريقِ النهرِ إلى الأرضِ الخضراءِ الفسيحةِ قُربَ الوادي.

ما أجملَ هذه الأرضَ المنبسطَةَ الخضراءَ!! ما أكثَر المراعي وما أعذبَ الماءَ!! آه .. ليتنا هربنا سويةً من القرية .. ترى ماذا حلّ بصاحبي الآن؟ .. ما أسوأني من صديقٍ جاهل، لقد بقيتُ أفكرُ يومينِ كاملينِ وفي النهايةِ تركتُه في البيتِ وهربتُ لوحدي .. وسيظلُّ هو ينتظرُ عودتي لآخذَه معي .. ما أغباني، صحيحٌ أنني حمار، جاهل.

راح يعنِّفُ نفسَهُ ويُوبّخُها ناسياً أنه أصبحَ قريباً من قطيعٍ جديدٍ من الحيوانات، نظر إليه متأنياً ثم قالَ: ((ما أقبحَ هذهِ الوحوشَ المفترسة .. لأبتعدْ عن طريقِها)).

لقد كان قطيعاً هائلاً لوحيدِ القرنِ وكان منظرُه البشعُ، الكريهُ ورائحتُهُ النتنةُ سبباً لجعلِ الحمارِ يُطلقُ ساقيهِ للريح ويهربُ باتجاهٍ آخر.



وفي سفحٍ أخضرَ فسيحٍ شاهدَ الحمارُ قطيعاً كبيراً من الغزلان .. إقترب منها وتأمّل أجسادَها اللطيفةَ وجلودها الناعمةَ، وتمنّى من كلِ قلبِهِ لو خلقَهُ اللهُ غزالاً لا حماراً، لانطلقَ الآنَ معها سارحاً فوقَ التلال، قافزاً بين الحقول والوديان.

ولكن كيفَ يستطيعُ ذلك وهو حمار؟ ونظر إلى جلدِهِ فأعجبهُ

فاكتسبَ من ذلك شيئاً من الغرورِ فقالَ في نفسِه :

ـ وَلِمَ لا ... سأعيشُ معها ، فأنا أكبرُ منها حجماً وأبهى منظراً ، أليست هي كالحةً بلونِ الترابِ وأنا زاهٍ مثلُ البساطِ الجميل .. أسودُ وأبيضُ ربما ستفرحُ بلقائي ، وستكون سعيدةً جداً حين يعيشُ معها واحدٌ مثلي .. حمارٌ جرّبَ الحياتين .. حياةَ المدنِ وحياة البرِّ ، إذن فلأتقدّم .

وهكذا اقتربَ الحمارُ من قطيعِ الغزلانِ فلم تهربْ منه ، بل لم تُعِرهُ اهتماماً كبيراً ، فخابَ ظنُّه لأنَّها لم ترهبْه ولكنّه نسي ذلك ـ والحمار كما نعلم ينسى بسرعةٍ ـ فتقدّم أكثرَ وأكثرَ حتى صارَ قريباً منها بحيثُ يستطيعُ أن يرى ويسمعَ كلَّ شيءٍ ، فسمعَ من يقولُ لصديقه : ((ماذا يفعلُ هذا الحمارُ هنا؟)) فيجيبهُ الغزالُ الآخر : لا أدري سأخبر الزعيم!!

وخشي أن يكون زعيمَ الغزلان شخصاً مثل صاحبه العجوز ، حيثُ عادت الى ذاكرتهِ أيامُ البؤس والعملِ الشاقِ من الصّباح إلى المساءِ ، فأرتجفَ قليلاً ولكنه تماسكَ ، وفي تلكَ اللحظةِ بالذاتِ انطلقتْ في الهواءِ صرخةٌ جارحةٌ لم يتصورْ أنها خرجتْ من وَسَطِ القطيع ، بل اعتقد أنها صرخةُ حيوانٍ آخرَ لا يقلُ خطراً عن الأسودِ والنُّمور .

فرّتِ الغزلان إلى أعماقِ الوادي وفرّ الحمارُ خلفَها .. ولكنْ من أينَ له تلكَ السيقانُ الدقيقة والقفزاتُ الرائعةُ كي يستطيعَ اللحاقَ بها؟ فما هي إلاّ ثوانٍ قليلة حتى غابَ القطيعُ عن عيونِهِ واختفى في الأفقِ ، وعادَ الحمارُ مُتعباً .. مُرهَقاً ، فوجد رابيةً صغيرةً فجلسَ فوقَها ساعةً يستريح .

وحين آستراحَ جيداً وآستعادَ في ذهنِهِ الموقفَ ، تذكّر الصرخَةَ القويةَ الجارحةَ التي سمِعَها من وَسْطِ قطيع الغزلانِ ، بل تذكّر الوعلَ الكبيرَ الذي أطلقَ تلكَ الصرخَةَ .. لقد فرت الغزلانُ إذن من أمامه ، ليس من الخوفِ ولكنْ لأنها لا تُريدُ أن يقاسمَها حمارٌ حياتَها الوديعةَ ، الهادئةَ تلك .

ضَحِك من نفسِهِ وقالَ : كيفَ أستطيعُ العيشَ معَ هذهِ الشياطينِ الخفيفةِ وأنا حمار؟

حينَ قامَ وهبطَ من الرابيةِ وجدَ أمامه منظراً أطار قلبَه مِنَ الفرحِ ، فقد كانَ الوادي الفسيحُ الأخضرُ قد انقلبَ لونُه الى لون آخر لا يقلُ جمالاً وجاذبية عن لونِ الزهورِ والأعشابِ لقد كان الوادي كلّهُ مخططاً باللونينِ الأسودِ والأبيض ، فهنالكَ العشراتُ بل المئاتُ من حميرِ الوحشِ المكتنزةِ ترعى في الوادي وتتحركَ ببطء دون أن تخشى شيئاً أو تخافَ أحداً . وقتها لم يستطعْ أن يقولَ شيئاً سوى أن يُطلقَ صرخةً مُكتومةً يعبّر فيها عن فرحِهِ وسعادتِهِ : ((آه ... إنّهم جماعتي)) .

لقد كانُوا ((جماعته)) حقاً ، فهو حمارٌ مخطَطٌ وهذهِ الحَيوانات الكثيرةُ التي ترعى هي حميرٌ مخطَطةٌ أيضاً ، لا هي فيلةٌ فيخشاها ولا



غزلانُ فتأنف من العيشِ معـه ، بل هي حميرٌ مثله لا تختلفُ عنه بشيءٍ ، وإذا كانَ هناكَ اختلافٌ بسيط بينه وبينهم فإن أحـداً غيْرَهُ وغيرَ صـديقِه الحمارِ الآخـرِ لا يعـرفُ هذه القضـية ، إذاً لماذا لا يقتربُ من القـطيعِ ويندسُّ بين أفرادِه؟.. نسخـة مثل مئاتِ النسـخ المتشـابهةِ التي تأكلُ وتتحركُ وتهربُ كأنها حيوانٌ واحـدٌ هائلُ الحجـمِ ... ومن يدري ، ربما سيجدُ بعدَ أيامٍ صديقاً يُنسيه صديقَه الذي ينتظرهُ الآن في البيتِ؟

لا .. لا ... لا يُمكنُ أن ينسىٰ صديقَهُ العزيزَ أبداً ، إن أخلاقَ الحميرِ لا تسمحُ لمثلِ هذه الفكرةِ أن تتسللّ إلى رأسه .



في هذه الأثناءِ اقتربَ الحمار وصـارَ على بعـدِ خـطواتٍ من أولِ مجموعةٍ من القـطيعِ ، وقد ظـنَّ أولَ الأمر أنه سـيستطيعُ التقـدمَ والاختلاطَ دون أن يثيرَ أحداً من القطيعِ ، ولكنّ ما تصوَّرَه كان بعـيداً عن الواقعِ . فما أن اقتربَ وصـارَ على بعـدِ متر أو مترينِ حتى سـمعَ أحدَها يقـولُ لصـديقه : انظر إليه .. أظنُّهُ مريضـاً أو مطروداً من قطيعٍ آخر .

- ردّ الحمارُ الثاني وهما يتوغلانِ في وَسْطِ القطيع .

- دعنا نخبر الزعيم .

((الزعيم ثانية)) .. ردّد الحمار هذه العبارةَ وكأنّهُ كان يخافها أشدّ الخوفِ ، فقـد ذكّرته بالرجـلِ العـجوزِ في القـريةِ وبأيامِ البؤسِ والعملِ الشاقِ دونَ أجرٍ يُذكر .

ظـلّ ينتظرُ زمناً قصـيراً كأنهُ الدهر فقـد أحسّ أن الحمارينِ اللذينِ توغلاّ في وَسْطِ القطيع سيعودان بعـد قليلٍ ومعـهما قرارُ الزعيم ، فأما البقاء أو الطرد ، وإذا كان القرارُ الثاني فيالبؤسِهِ وياسـوءِ حظه ، ترى ماذا سيفعلُ؟ وإلى أية جهةٍ سيتوجه؟

وكانت لحظاتٌ قاسـية ، عسـيرة ، تلكَ التي سـبقت مقـابلته للزعيم ، ولكن ما إن مَثُلَ بين يديه ونظَر هذا إليه نظرةً فاحصـةً ، مركّزة ، كأنه يُريد أن يشتَريه ، حتى عرفَ النتيجةَ ، فقد ابتسَم الزعيمُ ابتسـامةَ رضـا وقال : ((لا بأسَ ، لقد وافقنا على أن تعيشَ معـنا ، ولكنْ عليك أن تلتزمَ بقوانيننا)) .

فرح الحمارُ فرحاً شديداً أنساهُ السؤال عن تلكَ القوانينِ التي يجـب عليه أن يلتزم بتنفيذِها واحترامِهـا ، ولكنّ الزعيمَ لم يتركه يفكرُ بذلك حيث بدأ يوضحُ له واجباته :

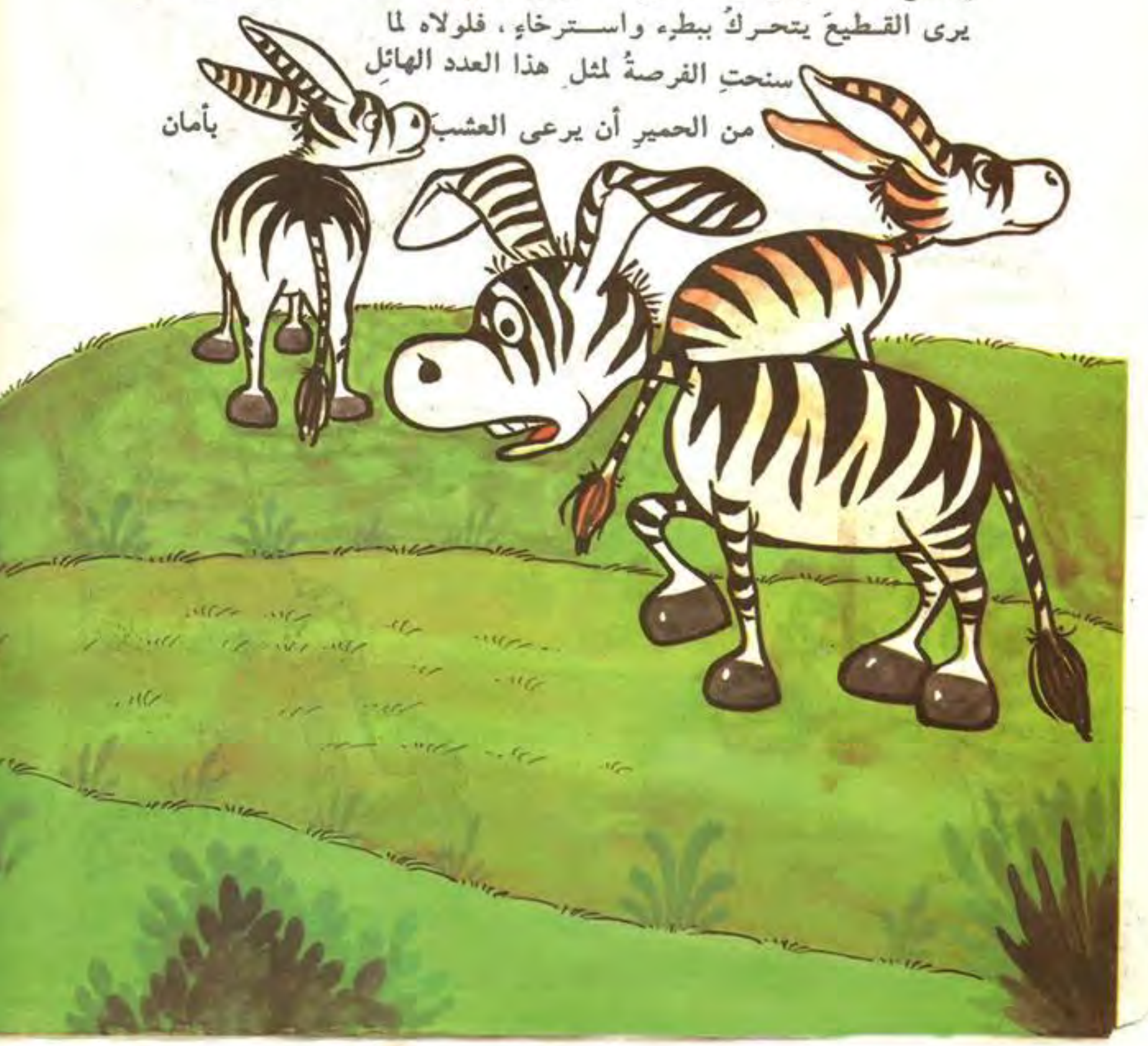
((أنت من الآنَ واحدٌ منّا ، ولكي نتعـرّفَ على مواهِبك جيّداً ، أرى أن تأخذَ الآن مكانكَ في الخلف ، وأن تكونَ حذِراً فتعطي إشارة الخطرِ حالما ترى عدوّاً مقبلاً من إحدى الجهات)) .

إزدادَ فرحُ الحمارِ بتكليفِهِ بالعملِ الجديد ، فما معنى أن يضعَ الزعيمُ حياةَ المئاتِ من الحميرِ تحتَ رحمتِهِ هو دونَ سواه؟ وبإشارةٍ منه يستطيعُ أن يجعلَ المئاتِ تهرب؟ وبإشارة أخرى تعود وترعى من جديد؟ لا بدّ أنهُ وثقَ منه وأُعجبَ به ... آه ، ليتَه يعودُ الآن إلى القريةِ ليخبرَ صديقَهُ الحمارَ عن وضعِهِ وعملِهِ الجديد ، لم يَمضِ على وجودِهِ في البراري أكثرُ من يومٍ حتى وصلَ الى هذه الدرجةِ من السمو والرفعةِ ترى . ماذا سيكونُ مستقبلُه لو بقي هنا سنةً أو سنتين ؟



إنتبهَ الحمارُ إلى نفسه ، فهو في هذهِ اللحظةِ يجبُ أن يأخذَ مكانَهُ في الخلفِ كما أخبَرهُ الزعيم .. وألاَّ يظلَّ هكذا يتثاءبُ ، بل عليه أن يقفَ على ربوةٍ ويفتحَ ذهنَهُ وعينيهِ جيداً ، وينتبهَ أقصى درجاتِ الانتباه فأيةُ إغماضةِ عينٍ تكلِّفُهُ وتكلِّفُ القطيعَ الكثيرَ ، وأيُّ اهمالٍ قد يذهبُ ضحيّته الكثيرُ من أصدقائهِ حميرِ الوحش .

وهكذا بقيَ ساعاتٍ وساعاتٍ يرقبُ الأفقَ شاداً أعصابَهُ فاتحاً عينيهِ جيداً ، وما كانَ يفكرُ إطلاقاً أن ينحنيَ إلى الأرضِ ويلتقطَ قليلاً من العشبِ ، لأن في ذلك إهمالاً للواجبِ الأهمِّ .. الواجبِ العامِ ، فكيفَ يُفضّلُ نفسَهُ وهو واحدٌ على الآخرينَ وهم جماعة؟ لقد كان سعيداً إذ يرى القطيعَ يتحركُ ببطءٍ واسترخاءٍ ، فلولاه لما سنحتِ الفرصةُ لمثلِ هذا العدد الهائلِ من الحميرِ أن يرعى العشبَ بأمان



وآطمئنانٍ .. وبلا خوفٍ من عدو يفاجئُها دونَ إنذار .

ولكنّ سعادتَه تحوّلت فَجْأةً إلى رُعبٍ قاتل . فها هو ينظرُ أمامه فيرى أسدين مُقبلَين باتجاهِ القطيع ..

حاولَ أن يُطلق إشارَةَ الخطرِ ولكنّه لم يستطعْ .. لقد أحسّ أن قوةً ما لجمتْ فَكَّيْه ومنَعْته من إطلاقِ الإِشارة ، وإن تلك القوةَ نفسَها شدَّت أرجُلَهُ الأربعَ فمنعتْهُ من الهرب .

ولكنّ ذلك لم يستمرّ سوى ثوانٍ قليلةٍ بعدَها تَشَجَّعَ وأطلقَ من حنجرتهِ صوتاً مُدوّياً لم تسمعْ مثلَه البراري من قبل .. صوتاً لا هو صُراخ ولا هو نهيق ، ولكنه مثلُ صوتِ ارتطامِ عشراتِ الصخورِ وهي تتدحرجُ من قمةِ جبل . وهكذا وصَلتِ الإشارةُ متأخرةً بعضَ الوقت ولكنّها نبّهتِ الجميعَ في آنٍ واحد فانطلقَ القطيعُ كلُهُ فاراً بالاتجاهِ المُعاكس والحمارُ ينطلقُ وراءه .



هذه هي المرةُ الثانيةُ في حياتهِ يُضطَرُ للهروبِ بسببِ الخوفِ ، كانتِ المرةُ الأولى عندما غادَر القريةَ قبلَ يوم ، حيث طاردتْهُ الكلابُ .. لقد كان خائفاً تلكَ المرةَ ولكنّه لم يعتقدْ أن الموتَ هو الذي يطاردُه ، لقد كان المطارِد في تلك المرة كلباً من كلابِ القرية التي يعرفُها وتعرفُه ، ولولا تلك الخطوطُ البيضاءُ اللعينةُ التي رسمها فوق جلدهِ لتركَهُ يمرُّ مِنْ أمامِهِ دونَ أن يرفعَ رأسهُ ويكلّفَ نفسَهُ النظرَ إليه .

أمّا هذه المرة فالمسألة أخطرُ .. والذي يطاردُه ليس كلباً من كلابِ القرية ، إنما هو أسدٌ حقيقي بل أسدانِ جائعانِ يُريدانِ طعاماً ، وهو إذ يطلقُ ساقيه ويهربُ إنما لكى ينجوَ بجلدهِ من موتٍ محقق .

وهكذا كان الحمار يجرّب سيقانه الأربع القويّةَ ويطعن بها الأرض الصُلبةَ ويعدو كما يجبُ أن يعدوَ حمارٌ في لحظاتٍ يرى فيها الموتَ يعدو وراءه .

دخل القطيعُ أحدَ الوديانِ ولحقَهُ الحمارُ وقد سال العرقُ على جسدِهِ ومرّ على خطوطهِ البيضاءِ فتعرج بعضُها وجرفَ الأصباغَ عن بعضِها الآخر .



وما إن استقرَّ القطيعُ ثانيةً وزال خطرُ الأسدينِ حتى قامَ الزعيمُ وشكر الحارسَ الجديدَ وأخبرهُ بأنَ مهمةَ ((الحراسةِ الدائمة)) قد أوكلت إليهِ من اليوم ، وأنهُ بسببِ مراقبتهِ الجيدةِ واعطائهِ إشارةَ الخطرِ في الوقت المناسب وبصوتٍ وصل إلى الجميعِ في لحظةٍ واحدةٍ ، فقد أختيرَ من بينِ القطيعِ كلهِ لهذهِ الوظيفةِ المُهمّةِ مُكافأةً له .

إزدادَ فرحُ الحمارِ وتمنّى ثانيةً لو كان الآنَ في القريةِ ليبشرَ صاحبَهُ بالمكانة التي وصلَ إليها ، ثم مضى مُسرعاً إلى أعلى التلِ ليقومَ بمهمةِ الحراسةِ من جديد. عاد إليه نفسُ إحساسهِ الأولِ قبل أن يرى الأسدينِ مُقبلينِ على القطيع .. فتذكّر كلماتِ الزعيمِ ووصيّته بأن يأخذَ مكانَهُ على ربوةٍ ، ويفتحَ عينيهِ جيداً وينتبهَ أقصى درجاتِ الانتباهِ ، فأيةُ إغماضةِ عينٍ تكلفهُ وتكلفُ القطيعَ الكثيرَ ، وأيُّ إهمالٍ قد يذهبُ ضحيّتهُ الكثير .

ومضتْ ساعةٌ وساعتانِ وصاحبُنا يمدُّ عنقَهُ ويفتحُ عينيهِ نحوَ الأفقِ يرقبُ كلَّ ما يتحركُ على الأرضِ ، والقطيعُ يرعى بهدوءٍ ودعةٍ .



وَفجْأةً حدثَ ما حدثَ في فترةِ الحراسةِ الأولى .. ولكنَها الآنَ مجموعةٌ مِنَ الذئابِ الكاسرةِ لم يتبينْ عددَها .. لقد رآها مُقبلةً من بعيدٍ فظنّها وُعولاً . ولكنْ ها هي تقتربُ من القطيعِ فتكشفُ عن هُويتها . أطلقَ الحمارُ صرختَهُ الغريبةَ تلك وقفز من الربوةِ العاليةِ منطلقاً خلفَ القطيعِ

الذي راحَ يعدو على الأرضِ بقوةٍ واندفاع .

في هذه المرّةِ طـالتْ فترةُ الجـري فالأرضُ مسـتويةٌ خضراءُ ، والأفقُ داكنٌ قليلاً بسـبب الغُـيوم ، وفي مثل هذا الجـوّ تسـتطيعُ الحَيوانات أن تضاعِفَ جُهدَها دونَ أن يتسللَ إلى عظامِها التعب .

وهكذا كانَ .. الحُمُر الوحشيةُ تعدو وتعدو وحارسُها يعدو خلفَهـا ولا يستطيعُ اللحاقَ بها ، فقد أنهكهُ الجـوعُ والعَـطَشُ . ولا أحـدَ يعـلمُ عن الذئابِ شيئاً ، لأنّ أيَّ حمارٍ لم يكلّفْ نفسَـهُ مشـقة الالتفـاتِ الى الخلفِ لرؤيتهـا ، فكلُّ واحـدٍ يرى الآخـرين يركضـون فيركضُ ، وما إن يقفْ أحدُها حتى يقفَ الجميعُ دُفعةً واحدة .

وكان الحمارُ الحارسُ أولَ من وقفَ من القـطيعِ ولكنّهُ كان بعـيداً عنهم فلم يلتفتْ إليه أحد ، وهكذا استمرتِ الحُمُرُ الوحشـيةُ بالجـري إلى الأمامِ تاركةً خلفَها حارسها الأمينَ وقد غطّى العرقُ جسدَهُ كلّهُ وأضـاعَ أيّ أثرٍ لصبغةِ حجرِ الكِلس .. فعادَ حماراً عادياً أسودَ كما كانَ من قبل .



بعـد زوال الألـوان

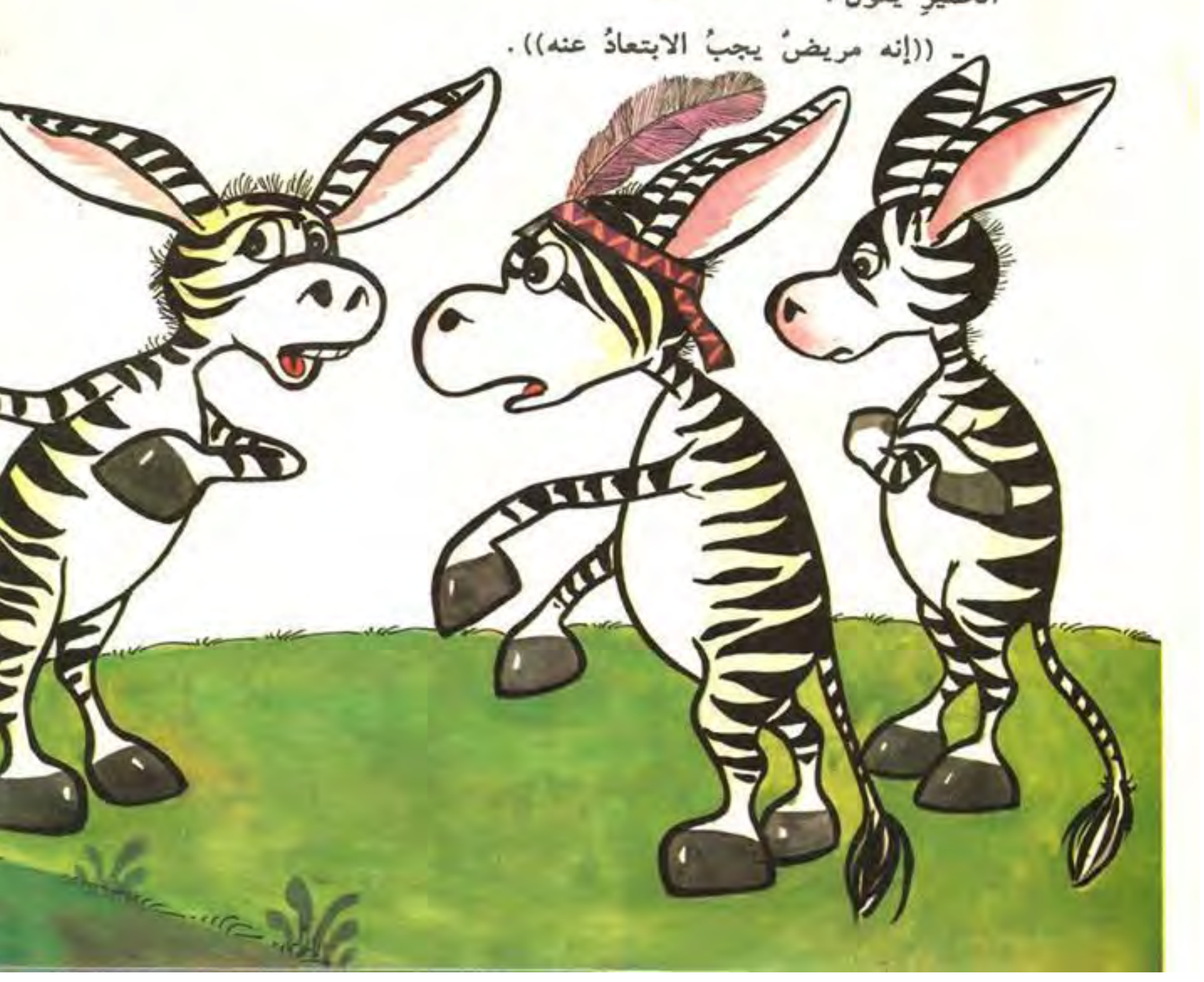


وجدَ الحمارُ نفسَهُ وحيداً ، ولكنّه استراحَ وأكلَ جيّداً وشرِبَ من غديرٍ صغيرٍ حتى ارتوى ، وحينَ قامَ تذكّر أصحابَهُ الحمرَ الوحشيةَ ، واشتاقَ لمهنةِ الحراسةِ النبيلةِ حتّى لو كانتْ تمنعُهُ من الرعي وتحرمُهُ من الاسترخاءِ على العُشبِ ، فقرر أن يبحثَ عن القطيعِ .. وهكذا قضى ذلكَ النهارَ كلَّهُ يبحثُ ويبحثُ .. سار في وديانٍ متعرجةٍ طويلةٍ ، وعبر غدراناً وجداولَ وصعدَ على التلال والروابي ولكنّهُ لم يعثرْ على أثرٍ للقطيعِ ، وقبل أن يباشرَ بالعودةِ نظرَ نظرةً أخيرةً إلى الأفقِ .. في تلك اللحظةِ لاحَ له من بعيد ظهرُ حمارٍ مخطط يقفُ على ربوةٍ عالية .. وحين اقتربَ منه عرَفَ أنه الحارسُ الجديدُ للقطيع .. فضحكَ في أعماقِهِ وتخيّلَ موقفَ هذا الحارسِ الذي سيُطردُ بعد ثوانٍ لا غير ، فقد عادَ

حارسُهُم المفضَّلُ نفسُه ، وكيفما يَكُنِ الحال فهو الذي سيقفُ بعدَ قليلٍ فوقَ هذه الربوةِ . ولكن ـ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفنُ ـ كما يقولون ، فقد نسيَ الحمارُ حادثاً مهماً طرأ عليه فغيَّر شكلَهُ تغييراً كاملاً ... لقد نسيَ أنّه فقد خطوطهُ البيضاءَ كلَّها ، وعادَ حماراً عادياً .. أعني حماراً مُختلفاً وغريباً عن باقي الحُمُرِ الموجودةِ في القطيع . ولم يكتشفْ ذلك إلاّ حينَ اقتربَ وصارَ على بُعدِ خَطوات عن القطيعِ فقد تغيَّرت نظراتُهم إليه وأصبحت تحملُ مزيجاً من الخوفِ والنّفورِ ، وابتعدتَ عنه كما لو كان مُلوثاً بالقار .

وفيما هو يفكرُ بهذا الأمرِ الغريبِ الذي لا يعرفُ سببَهُ ، سمِعَ أحدَ الحميرِ يقول :

ـ ((إنه مريضٌ يجبُ الابتعادُ عنه)) .



وسَمعَ صوتاً آخرَ يقولُ : ((بل يجبُ معاقبتُه وطردُه)) ..

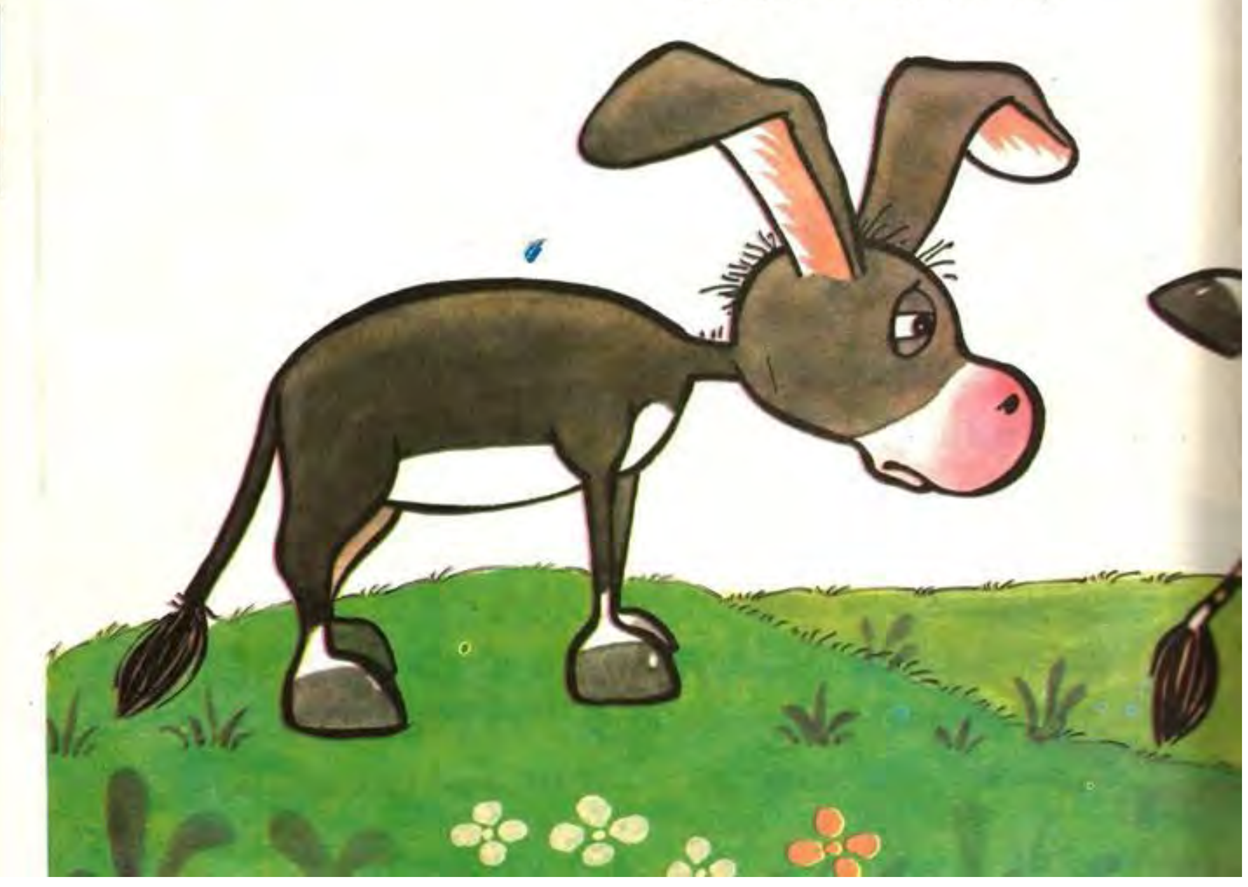
وانهمرتْ أصـــواتُ الحميرِ من هنا وهناك ، كلهـــا معـــنّفةٌ ومهـــدّدةٌ ومحذّرةٌ منه ، ومن بينِ هذه الأصواتِ المتشابكةِ المعـاديةِ سـمعَ صـوتَ الزعيمِ فتعلّقَ بهِ مستنجداً ، لعلهُ يكون صوتاً مختلفاً عن باقي أصـواتِ القطيع .

ولكن رجـاءَهُ قد خـابَ وأمَلهُ تلاشى حين أعادَ الزعيمُ قولَهُ بصـــوتٍ عالٍ :

ـ لقد أصيبَ حارسُنا بمرضٍ مُعدٍ ، ولا بدَّ من أن ...

ـ حين سمعَ الحمارُ الفِقْرةَ الأخيرةَ من كلام الزعيم بقيَ ساكناً حزيناً ، ينظر إلى الأرضِ الفسيحةِ الخضراءِ بوجومٍ ، فكأنه يفكّرُ بمصيرِه بعد أن يغادرَ القطيعَ ويبتعدَ عنه .

ثم أستدارَ إلى الخلفِ ومضى .



لم يكن يعلَم إلى أين يتّجهُ ، فها هي الأرضُ الواسعةُ تمتدُ أمامهُ ، أينما يسير فهناك عشبٌ وماءٌ ، وأينما يَسِرْ فثَمّةَ مكانٌ يستطيعُ النومَ فيه . ولكنهُ تساءلَ معَ نفسه :

((أأظلُّ هكذا تائهاً في البراري والوديان؟ أأقضي أيامي ولياليَّ في أراضٍ لا أعرفُها وأماكنَ لم أعتدْ عليها؟ أليستْ هذهِ هي حياةَ الضَياعِ والتشرُّدِ؟ لا أصدقاءَ أتسلّى معهم ولا أهلَ أعيشُ بينهم ، ولا بيت أعودُ إليهِ في المساء .

أيمكنُ للحياة أن تكونَ جميلةً وطيبةً هكذا؟ عشبٌ وماءٌ وأرضٌ خضراءُ فسيحةٌ وانا فيها كمن يتنزّهُ في الجنّةِ ، لا عمل ولا أحمالَ ثقيلة أنوءُ تحتها وأنا أتنقل في أزقة القرية ودروبها .

أيمكنُ لحياةٍ مثل هذه أن تكونَ مملةً ورتيبة؟)) .

راحَ الحمارُ يتحدَّث إلى نفسِهِ بصوتٍ عالٍ وهو يسيرُ وحيداً ، مبتعداً عن القطيع ، ثم صمت قليلاً وارتفعَ صوتُه من جديدٍ كأنه تذكّر شيئاً :

((ولكن كيف سأدافعُ عن نفسي في هذه البريةِ الخطرة؟ وهل ستتركني الأسودُ والنمورُ والذئابُ أعيش كما يحلو لي؟ لقد نجوتُ مرتينِ بأعجوبةٍ لأنّني كنت أفتحُ عينيّ جيداً لأنني كنت ـ أنا نفسي ـ حارساً . فهل سأظلُّ حياتي كلّها حذِراً ، خائفاً ، أترقّب الموتَ يأتي إليّ مع هذه الوحوشِ الكاسرة؟)) .

هكذا ظلّ الحمارُ يتحدّث مع نفسِهِ ساعةً كاملةً وكأنهُ يتحدّثُ مع صديقٍ يسيرُ الى جانبه ، مرةً يكونُ معه رقيقاً ومرةً معاتباً ، وبينَ فترةٍ وأخرى يرتفعُ صوتُه عالياً محذِّراً من شيءٍ يخشى من الوقوعِ فيه .

وحينما قاربتِ الشمسُ على الاختفاءِ كانَ الحمارُ قد سارَ عدةَ ساعاتٍ دون أن يدري ، وقد جعله حديثهُ الطويل مع نفسِهِ ينسى أنّهُ قد اقترب من قريةٍ غريبة لم يَرها من قبل . قرية لم تختلفْ من حيثُ المظهرُ عن قريتهِ العزيزةِ التي غادرها قبل أيام ، ولكنّها في تلك الساعةِ والمساءُ ينشُر رداءه الشاحبَ الكئيبَ فوقَها بدت قريةً يائسةً ، حزينةً . وما إن وضعَ قدميه في أحدِ طرقها الضيقةِ حتى ضاقت نفسُهُ وكادَ يختنق .

أيعـودُ إلى حياةِ البؤسِ مرةً أخـرى بعـد أن جـرّبَ الحياةَ الحُلوةَ، الطليقةَ في الحقولِ والبراري؟ أيستبدلُ العشبَ والماءَ والاسترخاءَ العذبَ هناكَ بهذهِ الطرقِ الموحلةِ والحياةِ الرتيبةِ بَين الجـدرانِ وقسـوةِ الناسِ وعصيهم الغليظة؟ ولكن لا مفرَّ من ذلك، فقد اختلطَ عليهِ كلُ شيءٍ ولم يعد يميّزُ، ما الذي يفيدهُ وما الذي يضُرهُ؟



ماذا يُريدُ بالذاتِ؟ لم يعدْ قادراً على الاختيارِ. وها هو الآن يتعثَّرُ في أزقةِ القريةِ الغريبةِ التي قادتهُ إليها قدماهُ دون أن يدري، وها هو يجدُ نفَسـهُ بينَ جمعٍ مِنَ الناسِ سرُعانَ ما اقتربَ بعضُـهم منهُ وراحُـوا يجرونَهُ بلا رحمة.

فى الليلِ انتهى به الحالُ مربوطاً إلى جذعِ شجرةٍ ، لقد قادهُ اثنانِ من هؤلاءِ وسارا بهِ بين الدروبِ المظلمةِ متعثراً بالحجارةِ القاسيةِ وجذوعِ الأشجارِ المقطوعةِ ، وبعدَ جُهدٍ وتعبٍ مريرينِ وصلا بهِ بيتاً في طرفِ القريةِ ، وفي ساحةِ البيتِ الترابيةِ كانت هناك شجرةٌ ، وبحبلٍ قصيرٍ رُبط إلى جذعِ تلكَ الشجرة .

ولم يكن بإمكانه أن يسمعَ كلّ ما دارَ بين الرجلينِ من أحاديثَ ولكنهُ إستطاعَ أن يلتقطَ عِدةَ كلماتٍ من هُنا وهُناك عَرف من مدلولِها



أنهما يُريدانِ بَيعه في قريةٍ أخرى غيرِ قريتِهما تلك .

كانت ليلتُه تلك وهو مربوطٌ إلى جِذعِ الشّجرةِ ليلةً قاسية حقاً ، فقد عَرفَ جيداً أن مصيرهُ مجهولٌ ، وأن أيامَهُ القادمةَ ليست سوى أيامٍ مليئةٍ بالهمِ والتّعاسةِ ، فأين ترى سيقودهُ هذانِ الرجلانِ؟ وفي أيةِ قريةٍ غريبةٍ سيبيعانهِ؟ ومن هذا الذي سيكونُ صاحِبَهُ في المستقبل؟ .



راحَ يتخيّلُ الصورةَ التي سيكونُ عليها فلم يجدْ في مخيّلتهِ إلاّ صورةً سوداءَ ، حالكَة الظلمة . وفي تلك اللحظة خطرتْ على بالهِ صورةٌ من صور الماضي فضحِكَ ، وخرجَ ضَحِكُهُ نهيقاً حاداً ، مُنفّراً ، لا يصدِقُ من يسمعُهُ أنَّ هذا الصوتَ الجارحَ ، الشديدَ القوةِ ، هو صوتُ حمارٍ يضحك . لقد كان يُعيدُ في خيالهِ صورةَ تلكَ الليلةِ حينَ هربَ من القريةِ مُتخفياً بزي حمارِ الوحش . فما أبعَد الشبهَ بين حالتهِ تلكَ وحالتِهِ الآن وهو مربوطٌ إلى جذعِ شجرةٍ بحبلٍ قصيرٍ لا يكادُ يسمحُ له بالانحناءِ إلى الأرض .

لقد تحوّلَ الأملُ المشرقُ ، المضيُ ، بعدَ تلكَ التجربةِ إلى يأسٍ قاتلٍ ، وها هو اليأسُ يقودهُ إلى هذهِ القريةِ البائسةِ ، الغريبة ، فلا يعرفُ عن مصيرهِ وعن حياتهِ المقبلةِ شيئاً؟ في تلك اللحظةِ لم يجد غيرَ البكاءِ دواءً لحزنه ، فبكى بكاءً مُرّاً دون أن يعلمَ به أحد ، لقد كان بكاءً خافتاً في الظلامِ ، فلا أحدَ هناك قريباً منه ليسمعَ نشيجَهُ وليس هناكَ بصيصٌ من نورٍ لتظهرَ دموعُه المنسابَةُ على خدّيه .



وهكذا قضى ليلَتهُ حتّى الصّباح .. لا طعامٌ ولا نومٌ ولا صديقٌ يتسلّى معه .

وفي الصباحِ جاءَهُ أحدُ الرجلينِ حاملاً معه سرجاً قديماً ، مرقّعاً ، فوضَعَه فوقَ ظهرهِ وأحكمَ شدّه من الجوانبِ ، ثم ذهبَ وعادَ ومعهُ حبلٌ طويلٌ لفّه حولَ رأسِ الحمارِ ووضعَهُ في فمه فعرفَ أنه استقبلَ اللجامَ ثانية ، وأنه من الآن لا يستطيعُ أن يسيرَ حسب رغبتهِ ومشيئتِه بل حسب رغبةِ ومشيئةِ من يُمسكُ اللجام . ثم بلحظة واحدةٍ قفز الرجلُ على ظهرهِ وقادَه خارجَ الدار .

ظلّ يسيرُ ويسيرُ حتى كلّت سيقانهُ من المشي ، فقد أنهكهُ الجوعُ والعطشُ والتفكيرُ الطويلُ فلم تعد قُواهُ قادرةً على حملِ رجلٍ كهذا والسيرِ به مسافاتٍ طويلةٍ دون أن يستريحَ ، وحين توقّفَ قليلاً وحاولَ



أنْ يمدّ رقبتهُ إلى بعضِ الأعشابِ اليابسةِ والأشواكِ على الطريق تلقّى ضربةً مؤلمةً على مؤخرته جعلتهُ يجري دونَ وعي منه .

راح يجري ويجري والرجلُ على ظهره مُمسكاً اللجامَ بيدٍ والعصا الغليظةِ باليد الأخرى ، وكلما أبطأ قليلاً لسعتهُ تلك العصا كأنّها أفعىً

أو سكينٌ تقطعُ جزءاً من جسدهِ وتدميه .

وبعدَ ساعاتٍ أحسَّ الحمارُ أنه يُوشك أن ينهارَ ، فأغمضَ عينيه وسار جاراً جسَده بصعوبة ، في ذلك الوقتِ أحسَّ الرجلُ هو الآخرُ بتعسبِ الحَيَوان الذي يحملُهُ فهبطَ عن ظهره وسارَ جوارَه في طُرقاتِ القريةِ حتّى وصلا ساحةٍ بيع الحمير قربَ السوق . حينها عرفَ الحمارُ أنه بينَ حميرٍ من جنسهِ وأنهُ يستطيعُ أنْ يبركَ قليلاً ويستريحَ ، فجرتْ في عروقه الدماءُ وأحسَّ براحةٍ وسعادةٍ كالتي أحسها في البريّةِ ليلةَ هربهِ الأولى .



وحين فتحَ عينيه ونظرَ إلى السّاحة والسوقِ الذي جوارها فغرَفاه من الدهشةِ ، إنه يعرفُ هذه الساحةَ جيداً ويعرفُ ذلك السوقَ وتلك الحوانيت أيضاً ..

أهو في حُلم أم في يقظة؟ ترى كيف وصل إلى هنا دون أن يحلَم ودون أن يرى؟

لقد كان منهكاً حقاً والرجلُ يقودهُ من تلك القريةِ الغـريبة ، بل إنه في الساعة الأخيرة لوصوله كان يسيرُ بصعوبةٍ بالغةٍ وهو مغمضُ العـينين ، ولكنه لا يصدِقُ أن يكونَ قد دخل إلى قريتهِ الأولى ووصل إلى السـوقِ دون أن يدري ، لا بد ـ إذن ـ أنه يحلُمُ ولا بد أنه الآن ما زالَ نائماً نوماً هادئاً عميقاً في مكانٍ ما .

وقبل أن يغمضَ عينيه ويعودَ إلى النوم كما تصوّر سَمع صـوتاً ليس غريباً عنه .. صوتاً إعتاد أن يسمعه كلَّ يوم ، صباحاً ومسـاءً ، لقـد تأكد الآن أنه يحلُم ، يحلُم ، فالساحةُ والسـوقُ وتلك الحـوانيتُ التي يعـرفها تظهرُ أمام عينيه مرةً واحدة ، ثم ها هو صوت آخرُ يعـرفه يأتي إليه مع



الصورةِ فيكتملُ الحلُمُ كما لو كان حقيقةً قائمةً أمام عينيه .

في تلكَ اللحظةِ أحسّ بيدٍ حانيةٍ ، دافئةٍ تهبطُ على رأسـهِ ثم تمشي على رقبتهِ وظهـرهِ بنعـومةٍ ولُطفٍ ، ففتحَ عينيهِ برفقٍ ونظرَ إلى هذا الذي أزالَ بتلك اللمسـةِ السحريةِ كلَّ أثرٍ للتعـبِ وكلّ أثرٍ للحـزن ، وما إن وقعتْ نظراتُه عليه حتى جمدَ من المُفـاجأة .. لقـد كان صـاحبُهُ العـجوزُ ينظرُ إليه برفقٍ والفرحُ بادٍ على وجهـهِ فقـد ذهبتْ ملامحُـهُ القـديمةُ القاسية وحلّتْ محلِها تقاطيعُ جديدةٌ فيها الحبُ وفيها الأملُ والحنان .

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

الجمهورية العراقية ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال



رسـوم : عبد الشافي سيد
صفوت فريد خلة

الناشر : دار ثقافة الاطفال ـ ص . ب . ١٤١٧٦ بغداد

ثمن النسخة داخل العراق ١٥٠ فلساً عراقياً
وخارج العراق ٣٥٠ فلساً

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
(٤٥) لعام ١٩٨٤
دار الحرية للطباعة ـ بغداد